فى موضـــوع الدراســـة

فصـــل تمهيـــدى

ثارت فى الدوائر السوسيولوجية فى نهاية العقد السابع وبداية العقد الثامن من هذا القرن مناقشات كثيرة حـــول النظرية السوسيولوجيـــة ومدى كفاءتها الامبيريقية فى وصف الواقع وتفسيره . ولم تتخذ هذه المناقشات شكلا تقليديا ، وانما اثارت مجموعة من القضايا الجديدة مثل علاقة علم الاجتماع بالأيديولوجيا ، وعلاقته بالدولة ، ودور الظروف الاجتماعية القائمة فى تشـــكيل مساره ، واثارت هذه القضايا بدورها جدلا حول قضايا أخرى مثل الموضـــوعية ، والتحرر من القيم ، والالتزام فى العلوم الاجتماعية . وعلى مستوى مجتمعات العالم الثالث دار الحوار فى اطار علم اجتماع التنمية ، وفى أطار علم الاجتماع المعرفى عن مدى انطباق هذه النظريات على المجتمع النامى . وقد بذلت فى مصر وفى الخارج محاولات اهتمت فى المحل الأول بما يمكن أن يفسر عمليات التنمية من نظريات علم الاجتماع الغربى . (١)

وتنتمى هـــذه الدراسة الى النوع الأول من الجـــدل الدائر حـــول كفاءة النظريات السوسيولوجية التى تطورت فى مجتمعات غربية ، ولكنها تنطلق فى ذلك من النوع الثانى الخاص بالعالم الثالث . فهناك جانب من الصورة لابد أن يكتمل ونحن نمارس الحوار من أجل التوصل الى نظرية صـــالحة لتفسير واقـــع مجتمعنا : ينحصر هذا الجانب فى ضرورة وعينا بطبيعة النظرية السوسيولوجية نفسها ، وطبيعة القوى والظروف المتحكمة فى مسارها ، وطبيعة الارتباطات المختلفة التى تربط هذه النظرية بنمط الاقتصاد القائم ، ونمط السياسة القائم . فمعرفة هذه الأشياء سوف يجعلنا نتفادى المثالب والمخاطر الكامنة فى تطبيق هذه النظريات — التى نشـــأت وتطورت

---

(١) انظر على وجه الخصوص :

— السيد الحسينى وزملاؤه ، دراســـات فى التنمية الاجتمـــاعية ، دار المعارف القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٤ .

— محمد الجوهرى ، مقدمة فى علم اجتماع التنمية ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب للتوزيع ، ١٩٧٩ .

— محمود الكردى ، التخلف ومشكلات المجتمع المصرى ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٧٩ .

فى مجتمعات تغاير طبيعتها طبيعة مجتمعنا — على واقع مجتمعنا أو محاولة « تطويع » بعض عناصره لتتناسب مع المقولات الأساسية لهذه النظريات . ذلك لاننا سوف نتوصل من خلال دراستنا لتطور النظرية فى المجتمعات الغربية والاحاطة بالظروف المحيطة بها أن هذه النظريات لا تتمتع بالكفاءة الامبيريقية التى تجعلها قادرة على الاحاطة بكل جوانب الواقع فى المجتمعات الغربية وصفا وتفسيرا ، وفضلا عن ذلك فسوف نجد أن هناك مجموعة من التيارات النقدية التى بدأت تظهر وتنتشر داخل علم الاجتماع ، وأن هذه التيارات النقدية قد بدأت تعيد النظر فى أغلب القضايا الكلاسيكية التى يقوم عليها علم الاجتماع . ولم تنشأ هذه التيارات النقدية من خارج البناء الأكاديمى للعلم ، بمعنى انها لم تنشأ فى مجتمعات غير غربية ، وانما نشأت داخل المجتمعات الغربية نفسها ،وتزعمها مجموعة من العلماء كانوا الى زمن غير بعيد ينتمون — فكريا — الى نفس البناء النظرى الذى يتعرضون له بالنقد ، بحيث يمكن أن نقول ونحن واثقون أن علم الاجتماع يخبر « ثورة من الداخل » تحاول أن تغير من الأسس التى يقوم عليها بناؤه التقليدى ، وأن تصحح مساره بحيث يجدد من أساليب تناوله لمعطيات الواقع الاجتماعى وبحيث يتخلى عن أهدافه التقليدية ليحقق أهدافا أكثر انسانية . ولا شك اننا سوف نكتسب قدرا كبيرا من الوعى عند محاولة الاستفادة من هذه النظريات أو عند محاولة اختبارها فى مجتمعنا اذا ما وضعنا أيدينا على عناصر هذه الثورة الداخلية التى يخبرها علم الاجتماع وكذلك الأسس التى قامت عليها ، والقوى التى أدت الى ابرازها .

وربما يكون السبب الجوهرى وراء هذه « الثورة الداخلية » فى بناء العلم هو ميل المنظرين الى التركيز على جوانب معينة من الواقع الاجتماعى دون الجوانب الأخرى : الامر الذى يضفى على النظرية طابعا خاصا ، ويوجه البحوث الميدانية وجهة خاصة هى تلك التى يرى القائمون على شئون العلم الاجتماعى أنها تدعم ايديولوجيتهم التى ليست — فى النهاية — الا ايديولوجية الطبقة الحاكمة . فأهم جوانب الواقع الاجتماعى اثارة للتنظير واجراء البحوث هى تلك الجوانب المتعلقة بالعلاقات البنائية الثابتة التى تربط بين أفراد وجماعات ونظم لها امكانها وأدوارها المحددة . وفى ذلك اهمال ولاشك للتغير الاجتماعى — عوامله وعملياته — ولمظاهر الصراع التى قد تنشأ بين الأدوار أو بين الجماعات أو النظم والتى قد تسبب تحولا جذريا فى العلاقات البنائية القائمة . ولقد ادى هذا الموقف الى اتسام التفكير السوسيولوجى السائد فى أوربا والولايات المتحدة

الامريكية بسمات خاصـــة اهمها على الأطلاق اضفاء طابع النظام والاستقرار على عناصر الواقع الاجتماعى. وهذا هو السبب فى اننا اتخذنا من مشكلة النظام Problem of Social Order نقطة انطلاق محورية فى هذه الدراسة. ويفرض علينا ذلك بدوره ان نركز على علم الاجتمـــاع الذى تطور من كونت فدوركايم فماكس فيبر فبارسونز ، دون ان نهتم بماركس او الماركسية . فتلك الأخيرة قد اتخذت من مشكلة الصراع — دون النظام — نقطة محورية او مشكلة محورية ، ونأمل ان نفرد لها دراسة مستقلة فيما بعد . وفضلا عن ذلك فان استبعاد الماركسية من التحليل — الا اذا اقتضت الحاجة — سوف يحقق الهدف الأول لهذه الدراسة واعنى اثبات الحقيقة التى مؤداها ان التيارات النقدية قد افرزها العلم الاجتمـــاعى — فى صـــورته المرتبطـــة بالنظام — ولم تفرض عليه او توجه له من مصدر خارجى .

ولكن مفهوم النظام الاجتماعى العـــام Social Order يثير مشـــكلة اخرى فاذا كانت الاتجاهات التقليدية فى علم الاجتماع قـــد نشأت كرد فعل لمشكلة النظام العام فى المجتمع ، وذلك عندما وضعت امامها ضرورة ايجاد حل للسؤال الملح : ما الذى يلم شـــمل المجتمع ؟ What holds Society together ? فما علاقة الاتجـــاهات النقـــدية الحديثة بهذه المشـــكلة ؟ المحقق ان دراسة هذه الاتجاهات يمثل أيضا دراسة لمشكلة النظام وذلك لسببين : الأول أن أحد الأسباب التى ادت الى نشأة هذه الاتجاهـــات النقدية هو ارتباط الاتجاهات التقليدية بمشكلة النظام ، وانحرافها بمسار العلم فى وجهة نظر خاصة تركز على عناصر الثبات والاستقرار وتهمل العناصر الأخرى وما ترتب على كل ذلك من مثالب (النزعة الامبيريقية ، الاتجاه النظرى المجرد ، كسر اسس الموضوعية وتشويه مبدأ التحرر من القيم) ، والثانى أن هـــذه الاتجاهات النقـــدية تســـعى ـــفى اثناء نقـــدها للاتجاهات التقليدية — الى ابراز الجوانب الأخرى التى اهملتها الاتجاهات التقليدية فى ارتباطها بمشكلة النظام العام . وهكذا فانه اذا كان النظام العام عند العلماء التقليديين يعنى « الهيكل العام الذى تنصهر داخله مجموعة من نماذج السلوك المنظمة وفق نسق من المعـــايير والجزاءات الشرعية ، ينظم العلاقة بينها ويحقق بينها قدرا من الترتيب والاتســـاق والاستمرار ويبث فيها مجموعة من القيم والمعايير التى تدعم هذا الثبات » ، فانه يعنى عند جمـــاعات النقـــاد شيئا مختلفا تمـــاما . فهم يلحون على ضرورة التخلى عن هذا الفهم ، لأنه يدعم فكرة القهـــر الخارجى التى طورها هوبز ، ولأنه يتصور هوة تفصل بين الباحث وموضوع دراسته ، ولأنه يهمل الجوانب الليبرالية والراديكالية فى التفكير الأمر الذى يجعل افـــراد

المجتمع مجرد « لعب » او مجموعة من الاشياء التى تنتظم بينها العلاقة بطريقة معينة . وبناء على ذلك فان دراسة الاتجاهات النقدية الحديثة لا يمثل ابتعادا عن دراسة مشكلة النظام ، فهى تمثل دراسة الوجه الآخر لهذه المشكلة .

وبناء على كل هذا تهتم الدراسة الحالية بأن تقدم عرضا نقديا للاتجاهات الأساسية فى علم الاجتماع الغربى من خلال ارتباطه بمشكلة النظام فى المجتمع ، فى محاولة لابراز الصورة الراهنة لهذا العلم ، بما فى ذلك القوى الاجتماعية والسياسية التى تؤثر على مساره وتطوره ، والتيارات الفكرية والأيديولوجية التى تضرب بجذورها فى بنائه وأساسه . وتنطلق الدراسة — منهجيا — من مسلمة معرفية مؤداها أن اى ضرب من ضروب الفكر ما هو الا انعكاس لمجموعة من الظروف الاجتماعية والقوى السياسية والاقتصادية المحيطة به . ولا يعنى ذلك أن الواقع هو الذى يشكل الفكر ، ولكن يعنى أن هناك علاقة جدلية بين الفكر الواقع : فالواقع يصوغ الفكر ويشكله ، ولكن الفكر قد يسهم فى تغيير الواقع اذا تعرض ذلك الأخير لضرب من ضروب القهر او « التحكم المصنوع » . وانطلاقا من هذه المسلمة سوف تحاول الدراسة — فى اثناء عرضها للاتجاهات الأساسية فى علم الاجتماع — تقليدية كانت او نقدية — أن تمتد بالتحليل عبر مستويات ثلاثة :

١ — مستوى الفكر النظرى المجرد والبحوث الامبيريقية المرتبطة به .
٢ — مستوى الواقع الامبيريقى الذى يفسره هذا الفكر وتلك البحوث .
٣ — التيارات الفكرية والأيديولوجية التى تغلف هذا الواقع وتكون اساسه الفوقى .

يمثل المستوى الأول الفكر النظرى السوسيولوجى الذى يشكل بؤرة اهتمام الدراسة الحالية ، اما المستويان الثانى والثالث فانهما يمثلان المجتمع بكل ما فيه من نظم وكل ما يتفاعل داخله من تيارات فكرية وسياسية . وتطور المعرفة السوسيولوجية لا يأتى الا من خلال التفاعل المستمر بين هذه المستويات الثلاثة . فسوف يتضح لنا أن التطورات الكبرى فى علم الاجتماع قد انبثقت عن مجموعة من القوى الاجتماعية والتيارات الفكرية والسياسية التى شكلت فكر الباحثين وجعلته يتخذ طابعا معينا . وسوف يتضح لنا أيضا أن احدث التطورات فى علم الاجتماع ، واعنى ظهور الاتجاهات النقدية لم يظهر الا كرد فعل لمظاهر الصراع البنائى والفكرى التى كشف عنها الواقع ، وانها اتجهت بعد ظهورها نحو تغيير هذا الواقع او الدعوة الى

تغييره لانها اكتشفت داخله بعض مظاهر التناقض التى يجب أن يتخلص منها . وتكون بذلك قد اثبتت تلك العلاقة الجدلية بين الفكر والواقع .

وسوف تنقسم الدراسة الى قسمين رئيسيين : يعالج القسم الأول الاتجاهات التقليدية فى علم الاجتماع الغربى فى علاقتها بمشكلة النظام وهو ينقسم الى خمسة فصول :

يعالج الفصل الأول مفهوم النظام الاجتماعى العام ومشكلته فيتعرض للمعانى المختلفة لهذا المفهوم ويتوصل الى تعريف محدد له : ثم يتعرض بعد ذلك لظهور مشكلة النظام على يد توماس هوبز وكيف ارتبطت بها نظرية علم الاجتماع من خلال توضيح آراء العلماء الذين يؤيدون هذه الفكرة او يرفضونها ثم يطرح الباحث فى نهاية الفصل تصوره عن مشكلة النظام وعلاقتها بمشكلة الصراع .

اما الفصل الثانى فانه يهتم بدراسة علم الاجتماع فى القرن التاسع عشر فى علاقته بمشكلة النظام : فيتعرض لآراء كونت ودوركايم وماكس فيبر من خلال ارتباطها بالظروف البنائية والفكرية التى أفرزتها وشكلت اتجاهها العام وجعلتها تتخذ من مشكلة النظام مشكلة أساسية لتوجيه مسارها . وطرح هذا الفصل فى النهاية فكرة تميز تراث ماكس فيبر لأنه اتخذ اتجاها نظريا ومنهجيا يخالف الاتجاه الذى سار فيه كونت ودور كايم ، وهو اتجاه ظل مميزا ومطمورا الى أن أحيت الاتجاهات النقدية الحديثة جانبا منه .

اما الفصل الثالث : فانه ينتقل مباشرة الى الصورة المعاصرة لعلم الاجتماع كما تتمثل فى أعمال تالكوت بارسونز . ويتتبع هذا الفصل عناصر الحل المعيارى لمشكلة النظام فى فكر بارسونز بدءا من تصوره الطوعى لعلاقات التفاعل وحتى تصوره النسقى لمستويات التكامل داخل المجتمع التى تبدأ بتضافر الدافعية والتوجيه المعيارى وتنتهى بميكانيزمات الضبط الاجتماعى ، وعالج هذا الفصل فى النهاية موقف بارسونز من قضيتى الصراع والتغير وانحرافه نحو الحلول التطورية عندما شكلت هاتان القضيتان معضلة فى مشروعه النظرى .

اما الفصل الرابع : فانه يهتم بالتجسيد الأمبيريقى لمشكلة النظام ، فيعرض لمجموعة البحوث الأمبيريقية التى حاولت أن تقدم براهين امبيريقية للحلول التى قدمها علماء الاجتماع لمشكلة النظام . وانتقى الباحث مجموعة من البحوث فى مجالى السياسة ودراسة التنظيمات حيث أكد فى نهاية عرضها العلاقة الخفية التى تربط بين النظرية والبحث فى علم الاجتماع .

أما الفصل الخامس فانه يتعرض لمجموعة المحاولات التى اندفعت — متأثرة بظروف معينة — نحو الربط بين النظريات التى تدعم النظام والنظريات التى تهتم بالصراع فى محاولة منها للخروج بعلم الاجتماع الغربى من دائرة النظام ، فدرس آراء لويس كوزر وديفيد لوكود ورالف دارندورف ومن تأثر بهم أمثال بيرسى كوهين وفان دن بيرج . وأكد هذا الفصل على الاسهام الذى قدمته هذه المحاولات الذى ينحصر فى اثراء بعض البحوث الامبريقية بالنظرة الشاملة التى تهتم بجوانب الصراع والنظام فى ذات الوقت .

أما القسم الثانى فانه يهتم بالاتجاهات النقدية الحديثة فى علم الاجتماع ، وينقسم الى خمسة فصول وخاتمة .

اهتم **الفصل السادس** بالظروف البنائية والفكرية التى أفرزت الاتجاهات النقدية الحديثة . وجاء الفصل ليسهم فى تفسير نشأة هذه الاتجاهات حيث طرح فكرة الصراع بين البناء الاجتماعى والفكرى القديم وبين البناء الاجتماعى والفكرى الجديد ، ذلك الصراع الذى أدى — من خلال العلاقة الجدلية — الى ظهور الاتجاهات النقدية كمرحلة أولى على طريق العملية الجدلية الواسعة النطاق التى ستنتهى بتغيير المجتمع كله والاطار النظرى الذى يفسره ومن خلال هذا التصور أبرز هذا الفصل بعض مظاهر الصراع الفكرى والبنائى فى المجتمعات الغربية التى دخلت مع البناء القديم فى تناقض أفرز الاتجاهات النقدية .

أما الفصل السابع فانه يعرض للاتجاه النقدى المبكر فى علم الاجتماع كما يتمثل فى أعمال رايت ميلز ، فأبرز الجانب الريادى فى أعمال رايت ميلز حيث جمع بين النقد السوسيولوجى والنقد الاجتماعى ، وعاش ظروف عصره مطوعا كل الأفكار التى هضمها نحو تفسير بنا المجتمع الذى يعيش فيه . وتعرض هذا الفصل لجانبى النقد عند رايت ميلز فعرض لفكرته عن الخيال السوسيولوجى ثم علاقته باليسار الجديد والماركسية ، ثم رؤيته لدور عالم الاجتماع فى المجتمع الحديث ، ومدى التزامه بهذا الدور وكل ذلك فى اطار الظروف الفكرية والبنائية المحيطة به .

اما الفصل الثامن فانه يعرض لجانب من حركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع كما تتمثل فى حركة النقد السوسيولوجى التى يتزعمها الفن جولدنر . وتتبع هذا الفصل نظرية جولدنر النقدية بدءا من الارهاصات التى ظهرت فى الستينات وحتى صورتها المكتملة التى قدمها فى كتابه « الأزمة القادمة » . ثم تعرض لرد فعل علم الاجتماع التقليدى تجاه نظرية جولدنر النقدية ، ذلك الذى تمثل فى موجة عنيفة من النقد تزعمها غلاة المحافظين من علماء الاجتماع ، وموقف جولدنر من هذا النقد .

اما الفصل التاسع فانه يعرض لجانب آخر من حركة التجديد والنقد فى علم الاجتماع والتى تجسدت فى اتجاه النقد الاجتماعى او فى آراء مجموعة من العلماء يقتفون اثر رايت ميلز فى صياغة نظرية نقدية عن المجتمع .. وعرض هذا الفصل لبعض الاتجاهات النقدية فى المانيا وفرنسا وأمريكا ، ثم عرض بالتفصيل للآراء النقدية التى ظهرت فى اعمال كل من بوتومور وجون ركس على انها تمثل امتدادات حقيقية لأعمال رايت ميلز .

وتعرض الفصل العاشر لبعض البدائل النظرية فى علم الاجتماع الغربى ، موضحا كيف اتخذت هذه البدائل طابعا فينومينولوجيا متأثرة بفلسفة هوسرل وآراء الفرد شوتز فى الفينومينولوجيا الاجتماعية ، وفى نفس الوقت ابراز مدى اختلاف هذه البدائل عن الاتجاهات التقليدية وموقفها من مشكلة النظام الاجتماعى العام .

وفى نهاية هذا القسم جاءت خاتمة البحث حيث عرض الباحث لبعض تصوراته عن حركة وتطور علم الاجتماع ، ثم اكد ضرورة الاستفادة من التراث الكلاسيكى الذى قدمه ماكس فيبر وماركس بنفس طريقة رايت ميلز فى التعامل معه .